الآراء الواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها ، وقد لا تتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

تدافع البوارج في مضيق هرمز بين الولايات المتحدة وإيران مَن يهدد مَن؟

د.عماد علو
كاتب وباحث

لا تبدو من المصادفات تزامن زيارة الرئيس الأمريكي (جورج دبليو بوش) الأخيرة إلى منطقة الشرق الأوسط مع التصعيد العسكري والإعلامي وتدافع البوارج والوحدات البحرية الأمريكية والإيرانية في مضيق هرمز . ويبدو أن الإدارة الأمريكية قد مهدت واعدت بشكل لافت للنظر لزيارة الرئيس بوش للمنطقة في دلالات ذات معنى كبير لتوجيه رسالة قوية إلى إيران ، التي استحوذت على الجزء الأكبر من التصريحات والخطابات التي ألقاها الرئيس الأمريكي بوش من على السواحل الغربية والجنوبية لمضيق هرمز !! فكلمات مثل مواجهة التهديدات وعزل والحد من خطورة ودعم الإرهاب جاءت متناسقة مع تأكيد الرئيس بوش بقاء القوات الأمريكية العاملة في الخليج بمستوى من القوة تمكنها من الحماية والدفاع عن حلفائها في المنطقة في إشارة إلى مخاوف أعربت عنها دول الخليج العربية الحليفة للولايات المتحدة من قيام إيران بإغلاق مضيق هرمز ذي الأهمية الإستراتيجية لتجارة البترول في حالة اندلاع أي مواجهة عسكرية بين إيران والولايات المتحدة الأمريكية على خلفية قضية الملف النووي الإيراني المثيرة للجدل ، وعزز الرئيس الأمريكي تصريحاته تلك بالتوقيع على اتفاقيات ضخمة لبيع أسلحة متطورة بمليارات الدولارات إلى كل من الإمارات العربية المتحدة والسعودية لتمكينهما من مواجهة خطر التهديدات الإيرانية . ولابد من أن يتبادر إلى الذهن تساؤل" مفاده ترى من يهدد من في مضيق هرمز؟ وهو ما سنحاول مناقشته في هذه المقالة !

الدور الستراتيجي لمضيق هرمز في الصراع

لا نريد الدخول في أسباب ودوافع ومبررات ومحركات الصراع المتصاعد بوتائر سريعة بين واشنطن وطهران لان هذا ليس موضوع بحثنا ولكن ما يهمنا في هذا البحث موقع وتأثير مضيق هرمز في هذا الصراع في حالة تطوره إلى وتائر اقتصادية ولربما عسكرية وهذه هي الرسائل التي حاول كل من الطرفين الإيراني والأمريكي إرسالها إلى الآخر. حيث ستحاول كل من واشنطن وطهران استثمار التأثير الاستراتيجي لموقع مضيق هرمز على الطرف الآخر في حالة حدوث أي من المواجهتين الاقتصادية والعسكرية أو الاثنين معا . حيث أن أي فرض للعقوبات الاقتصادية أو حتى الحصار الاقتصادي على طهران فان مضيق هرمز سيشهد أوسع وأكثر عمليات الضغط الاقتصادي من قبل كلا الطرفين على الطرف الأخر . حيث ستحاول البحرية الأمريكية وبحريات الدول المتحالفة معها التحكم بنوعية السلع والبضائع والشحنات المارة عبر المضيق إلى إيران في حين ستحاول إيران التصدي بمختلف الوسائل للمحافظة على حقها بالتجارة عبر المضيق وقد تلجأ إلى إجراءات مقابلة قد تؤدي إلى مواجهات عسكرية في منطقة المضيق . أما في حالة تصاعد الموقف بين واشنطن وطهران لدرجة المواجهة العسكرية لأي سبب كان فان المنطق العسكري يحتم على واشنطن تأمين مضيق هرمز من الناحية العسكرية أي بعبارة أدق احتلال مضيق هرمز ومنع إيران من أي إمكانية لعرقلة تحركات القوات الأمريكية البحرية والقوات المتحالفة معها وهذا سيتم باحتلال الساحل الشرقي والشمالي للمضيق والجزر المتحكمة بمداخل مضيق هرمز مثل طنب الكبرى والصغرى وأبو موسى .وفرض سيطرة جوية ليس فقط على منطقة المضيق وإنما على السواحل الإيرانية المطلة على الخليج مما يعني ضرب قواعد إطلاق الصواريخ البالستية والساحلية الإيرانية وأي إمكانيات إيرانية لاستخدام الألغام البحرية أو الزوارق الصاروخية وحتى القوة الجوية الإيرانية التي يمكن أن تؤثر في سلامة الملاحة في منطقة الخليج العربي . وبعد أن قررت واشنطن احتلال العراق زاد عديد وعدة قواتها شمال مضيق هرمز الأمر الذي جعل المضيق البوابة الوحيدة لإدامة الاتصال البحري مع القواعد والقوات الأمريكية العاملة في البحرين وقطر وحفر الباطن والكويت والعراق. وعليه فان أي تهديد قد يتعرض له مضيق هرمز سيعني قطع خطوط الإمداد اللوجستية عن القوات الأمريكية والغربية في منطقة الخليج العربي إضافة إلى قطع الإمدادات النفطية والتجارية عبره .لذلك يعتبر امن وسلامة وحرية الملاحة عبر مضيق هرمز مسالة امن قومي بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية ..

مَن يهدد مَن ؟

تحاول الولايات المتحدة وعبر وسائل إعلامها المختلفة وتصريحات مسؤوليها على مختلف مستوياتهم إقناع دول المنطقة وخاصة" دول الخليج العربية والسعودية بان إيران مصدر تهديد خطر لأمن المنطقة ! وان البحرية الإيرانية تشكل تهديدا" خطر" لأسطولها البحري في منطقة الخليج العربي . ومما ساعد واشنطن على طرح هذه الحجج التصريحات التي أدلى بها الرئيس الإيراني(محمود احمدي نجاد) في أثناء زيارته (أبو ظبي) في أيار ٢٠٠٧ والتي أعلن فيها أن إيران ستتصدى بقوة لأي تهديد لمصالحها في منطقة الخليج العربي .حيث عكست تلك التصريحات مدى جدية التهديدات التي تشعر بها طهران من جراء زيادة واتساع التواجد العسكري الأمريكي في منطقة الخليج العربي التي تعتبر بالنسبة لإيران مجالا حيويا إستراتيجيا يمتد تأثيره لمختلف نواحي الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية عوضا عن الأهمية العسكرية للخليج بالنسبة للأمن الوطني الإيراني . وترى طهران أن زيادة التواجد العسكري الأمريكي والغربي بالقرب من سواحلها عامة ومن مضيق هرمز خاصة قد يتيح للغرب فرض حصار اقتصادي وبحري عليها من خلال قدرة تلك الدول على استخدام القوة للتحكم بحركة الملاحة البحرية عبر المضيق .لذلك دأبت إيران على القيام بعدد من المناورات البحرية الضخمة بالقرب من منطقة مضيق هرمز ولوحت عدة مرات بقدرتها على الدفاع عن مصالحها في منطقة الخليج العربي ومضيق هرمز على وجه الخصوص ومن الجدير بالذكر أن إيران عززت من قدراتها العسكرية بشكل لافت للنظر منذ انتهاء حربها مع العراق في عام ١٩٨٨ وقد ركزت في تسليحها على الصواريخ البالستية المتوسطة والبعيدة المدى طراز شهاب والصواريخ الساحلية طراز سيلك وورم كما عززت قدراتها البحرية بشراء وتصنيع عدد من الغواصات والألغام البحرية الأمر الذي يشير إلى امتلاكها قدرات تمكنها من التأثير فعلا على حركة الملاحة في مضيق هرمز ، الذي تعرف انه يشكل بطنا رخوة بالنسبة للغرب وخصوصا الولايات المتحدة الأمريكية التي تنشر قوات ضخمة برية وبحرية وجوية إلى الشمال منه في منطقة الخليج العربي ، ومن نافلة القول انه ليس لإيران أي تواجد عسكري واسع بالقرب من السواحل الأمريكية المطلة على المحيطين الأطلسي والهادي ، كما لاتصل أي من مديات أسلحتها البالستية أو طائراتها الحربية إلى أراضي الولايات المتحدة الأمريكية وهي بالتالي لا تشكل أي تهديد فعلي للولايات المتحدة الأمريكية التي تكاد قواتها أن تحيط الأراضي والمياه الإقليمية الإيرانية من كل الجهات وتقع جميع المدن والأهداف الحيوية الإيرانية في مرمى ومدى الأسلحة الأمريكية المتطورة ! ويبقى السؤال الذي قد يتبادر إلى الذهن ترى من يهدد من إيران تهدد أمريكا أم بالعكس؟.

ماركس الناقد

سعد محمد رحيم
كاتب

.١

تنطوي لغة ماركس على مسحة تهكمية، إنه يتهكم كلما كان ذلك ضرورياً، ولكن بمرارة.. يسخر حتى حين يعبر عن أشد حالات الألم في أعماقه. فماركس يعي أنه بمواجهة عالم يجب رفضه وتحويله. والسخرية وسيلة من بين وسائل أخرى عديدة لتفكيك أسس وعناصر وعلاقات هذا العالم، ولاسيما الخطاب الفكري والسياسي السائد والتمهيد لتغييرهما (العالم والخطاب).

إن أشد ما يخافه المتزمتون هو الضحك، السخرية. فوهمهم الذي يجعلهم يعتقدون بامتلاك الحقيقة وحدهم واحتكارها كما يتصورونها مآله التبدد إذا ما تعرض للسخرية. فأشد الناس تبجحاً وادعاءً وغروراً يمكن أن تنال منه السخرية.. السخرية التي تتوجه إلى الزائف والكاذب والمزور.. كانت القداسات الزائفة تنهار الواحدة تلو الأخرى تحت ضربات مطرقة السخرية.. السخرية في الفكر والأدب بُعد كاسح هدّام. ومن قرأ رواية (اسم الوردة) لأمبرتو إيكو يعرف كيف أن راهباً متزمتاً مثل يورج وهو واحد من شخصيات الرواية كان يخشى الضحك خشيته من أرسطو والشيطان، فالضحك كما يقول: "يبعد السوقي لبعض لحظات عن الخوف" وأيضاً يمنح الإنسان الاعتيادي العامي وسيلة للهزء مما يظنه حقائق نهائية.

يقول يورج لراهب متفتح الفكر هو غوليالمو: "لو حرك أحدهم يوما كلمات الفيلسوف وتكلم إذن كفيلسوف ورفع فن الضحك إلى مكانة سلاح ذكي.. لو عوضت الحجة المتأنية والمنجية التي تعتمد على صور الخلاص البشري بالحجة المتلهفة التي تقلب كل الصور المقدسة والجليلة.. آه، في ذلك اليوم أنت أيضاً وكل معرفتك يا غوليالمو ستكونان من المهزومين".

والسخرية مع ماركس ليس وسيلة العاجز بل وسيلة الواثق من نفسه.. في كتاب (١٨ برومير لوي بونابرت) يضع ماركس بونابرت الثالث في موضع الهزأة بعد أن يحيل إلى إشارة هيجل عن التاريخ الذي غالباً ما يكرر نفسه فيعلق (ماركس) بأن هيجل نسي أن يضيف مرة كمأساة ومرة كمهزلة وتهريج.. وقد كانت المأساة مع نابليون بونابرت لكن المهزلة تجسدت كما يرى ماركس في التقليد الرديء (لوي بونابرت). وهنا يأخذ على الأمة الفرنسية التي سمحت أن يقودها كل من هب ودب ضعفها: "إنه لا يغفر لأمة، كما هي الحال بالنسبة للمرأة، لحظة الضعف حيث أمكن لأول عابر سبيل أن تمكن منها بالعنف... ويبقى تفسير كيف أن أمة تضم ستة وثلاثين مليون رجل أمكن أن يأخذها على حين غرة ثلاثة نصابين ويقودوها، دون مقاومة، إلى الأسر والعبودية". وعن هذا الكتاب يقول فرانز مهرنغ: "نجح ماركس في كتابه الذي يشع ذكاء وفكاهة أن يحلل حدثاً تاريخياً معاصراً حتى النخاع، وذلك بفضل المفهوم المادي للتاريخ. ولا شك أن شكل الكتاب عظيم كمحتواه". ويستشهد أخيراً بما يسميه بالكلمات الواثقة في النتيجة النبوية لماركس: "إذا انتهت العباءة الإمبراطورية إلى تكفي لوي بونابرت فإن تمثال نابليون البرونزي سيسقط من عمود الفاندوم ويتحطم".

ربما تكون أشد مماحكات ومساجلات وتعليقات ماركس سخرية وتهكماً هي تلك التي ضمنها في رسائله الكثيرة، لكن أنجلس يشير إلى كتاب صارم في علميته ومنهجيته مثل (رأس المال) فيثني على الكتاب من حيث سلاسته وأسلوبه الممتع والمتهكم.. يقول: " إن الكتاب ، باستثناء المواضيع الديالكتيكية الكثيفة في الصفحات الأربعين الأولى، وبالرغم من صرامته العلمية، كتاب سهل الفهم، بل إنه كتب بأسلوب ممتع وذلك بسبب أسلوب المؤلف التهكمي الذي لم يتوفر لأحد". ناهيك طبعاً عن بلاغة ماركس التي تقترب في بعض الأحيان من الشعر، هو الذي أُغرم بالشعر وسعى ليكون شاعراً في شبابه قبل أن تأخذه الفلسفة وعلوم الاقتصاد والتاريخ والاجتماع والسياسة إلى مفازاتها. وقد ارتبط في شبابه بعلاقة صداقة مع الأديب والشاعر الألماني هينريخ هاينه على خلفية اهتمامات فكرية مشتركة.. وكما يعبر فرانز مهرنغ في كتابه (كارل ماركس): "كان ماركس وهاينه مشدودين إلى بعضهما برباط روح الفلسفة الألمانية والاشتراكية الفرنسية، وبكراهية مشتركة عميقة للكسل المسيحي. الجرماني، لتلك التوتونية المزيفة، التي سعت إلى تحديث الثوب القديم للحماقة الألمانية بالجمل الثورية".

كان أنجلس هو الآخر ساخراً، وربما كان أشد سخرية من صاحبه، وقد احتوت مراسلاتهما على كم هائل من العبارات المتهكمة الهجائية، والتي تبعث على الابتسام والضحك. لقد عرضا عالم القرن التاسع عشر برمته للنقد العلمي التحليلي بمنهجهما المادي الجدلي، وأسبغا على بلاغتهما الناصعة تلك المسحة المرحة الساخرة التي تستملحها الأذهان، وتتمثلها بشكل سهل ومريح.

.٢

والآن...

هل من الإنصاف محاكمة فكر ماركس في ضوء تعقيدات نهايات القرن العشرين، وبداية القرن الواحد والعشرين؟. ما المحدود في فكر ماركس، والمحدد بسياق تكوّنه/ فضائه وزمانه؟ وما اللامحدود فيه، الذي يجعل لمقولة (ماركس معاصرنا) مشروعيته؟.

وقبل هذا وذاك؛ من يحتكر ماركس الحقيقي؟ وقبله؛ أهناك ماركس حقيقي؟ وللإجابة على السؤال الأخير نقول ببساطة؛ نعم، ذلك الذي عاش وكتب تلك الكتب والنصوص التي نعرفها، وخاض تجربته الفكرية والنضالية التي اطلعنا عليها في مئات المصادر. وماركس الذي نعنيه هو ماركس في التاريخ.. ماركس الذي عاش في زمان متعين وأمكنة يمكن تأشيرها على الخارطة، فليس إذن من اللائق وضعه فوق التاريخ والنظر إليه من وراء الزمان والمكان، وإلباسه جبّة القداسة التي لا شك يرفضها. ماركس المكفول بشروط وجوده البيولوجي والفكري والتاريخي. وأيضاً ما يعنينا الآن ليس البحث عن اتساق صوري بين عناصر نظريته ومقولاتها، على الرغم من أهمية مثل هذه الخطوة، بل الوقوع على العصب الجدلي لها وفهم روحها النقدية؟ فالماركسية تموت لحظة تكف عن النظر النقدي، والوفاء لماركس يتطلب المحافظة على البعد النقدي في الماركسية لا من حيث التعاطي مع العالم فحسب، مع النظريات الأخرى وحسب، وإنما في نقد ذاتها كفكر.

"ما هي الفلسفة؟ وأعني النشاط الفلسفي إن لم تكن نقد الفكر لنفسه؟ وإن لم تقم على الشروع في معرفة كيف وإلى أي مدى يمكن التفكير على نحو مغاير، بدلاً من تبرير ما نعرفه من ذي قبل" هذا ما يقوله ميشيل فوكو في كتابه (تاريخ الجنسانية) وأظن أن ماركس كان سيعجب بمقولة كهذه لو سمعها وقرأها لمّا كان حياً. وحين نقول بمراجعة ثوابت الماركسية يبرز السؤال؛ ما الذي سيتبقى من ماركس إذا ما عرضنا نظريته بمسلماتها ومنهجها وتوجهاتها إلى النظر النقدي وفككناها؟. بيد أن الغريب في الماركسية، وهذا دليل حيويتها وخصوبتها أنها تظل ضامنة لبقائها على الرغم من تعرض كثر من مقولاتها الأساسية للنقد والتقويم وأحياناً للدحض أو إعادة الصياغة من قبل الماركسيين أنفسهم استناداً إلى معايير منهجية جديدة أو محاكمتها على وفق معطيات الواقع التاريخي الموضوعي. وأظن أن تفسير هذا يعود إلى المجال النظري الذي دشنه ماركس، الخاص بنقد أسس وآليات النظام الرأسمالي، والكشف عن قوانين تحولاته وأزماته من منظور مادي جدلي.. إن الخاصية النقدية للماركسية هي سر قوتها وديمومتها، وهو نقد لا يطول ما يقع خارج إطار النظرية الماركسية وممارساتها فقط، وإنما يطولها هي أيضاً نظرية وممارسة.

ثمة روح الماركسية تحتضن وتستوعب وتتجاوز في الوقت نفسه حتى الأسس النظرية والمنهج المادي الجدلي والمادي التاريخي، وتلك التصورات كلها التي أطلقها ماركس المتموضع في أوروبا القرن التاسع عشر. غير أن هذه الروح ليست مفهوماً ميتافيزيقياً بأية حال.. إنها حقل نظري افتتحه ماركس، ومناخ علمي نقدي أشاعه، ورؤية واسعة للتاريخ والعالم وسّعت أفق رؤيتنا، ومفاتيح معرفة خلاّقة سلمنا إياها، وعتبة جديدة وضعنا عليها.. من هذا الحقل وهذا المناخ وهذه الرؤية وهذه المفاتيح وانطلاقاً من تلك العتبة خرج ماركس أولاً، ومن بعده خرج ويخرج ورثته. انهيار جدار برلين، وتفكك الاتحاد السوفيتي والمنظومة الاشتراكية في شرق أوروبا، هذا كله شرع طريقاً آخر للوصول إلى ماركس والتعاطي مع فكره ثانية. فهذه المرة هناك هذه التجارب الثقيلة بنجاحاتها وخساراتها، بانحرافاتها وعثراتها ودروسها العظيمة على الرغم من كل شيء. فقد صار لدينا الأرشيف القابل للدراسة وإعادة النظر وإعادة التقويم، وليس من غير معونة ماركس.. ليس ماركس وحده، وإنما ورثته كذلك، أولئك الذين يقرون بفضله، وأولئك الذين ما زالوا يعلنون ولاءهم له، وأولئك الذين يدينونه ويشتمونه.. أبناؤه الصالحون والأوفياء، وأبناؤه العاقون. وأحسب أن أية مراجعة موضوعية وجادة لتلك التجارب والممارسات والتطبيقات لن تكون مجدية ومثمرة مع تجاهل استخدام منهج ماركس ذاته في النظر والتحليل والتقويم. ولن تقود في نهاية المطاف إلاّ إلى ماركس. أي أن ماركس لن يخرج أبداً خاسراً، من عملية المراجعة المدققة والمقومة، بل على العكس تماماً، إنها ستعيد له الاعتبار. وأكبر خدمة يمكن أن تقدم لماركس وفكره اليوم وإعادة الاعتبار إليه هو عدّه فيلسوف الحياة، وقراءته من هذه الزاوية.. الحياة التي هي القيمة العليا فوق القيم كلها، معيار القيم ومبتغاها.. القيمة التي تتضمن الخير والمحبة والحق والحرية والجمال، فأية فلسفة أو إيديولوجية لا تضع الحياة بهذا المفهوم مركزاً لها ستتردى بالممارسة إلى أن تغدو فلسفة أو إيديولوجية تسوّغ الشر والظلم والموت.. فلسفة أو إيديولوجية توطد، باسم العقلانية والنفعية، نظاماً توتاليتارياً، أو ديكتاتورياً بغيضا. فماركس الذي دعا إلى تحرير الإنسان من السطوة الخانقة للدولة، واستلاب العمل لم يخطر بباله أن تقوم باسمه أنظمة توتاليتارية ديكتاتورية استبدادية تدمج الإنسان في ماكنة الدولة من خلال عمل قسري بعد أن تسلبه حريته وأحياناً كرامته، وإذا اقتضى الأمر حياته.. وكذلك فإن المأزق الأخلاقي الذي وجدت الماركسيات المتناسلة نفسها فيه في القرن العشرين إلاّ نتيجة الانحراف المأساوي عمّا ناضل من أجله ماركس؛ أي حق الإنسان في حياة ثرية وحرة وكريمة بالمعنى العميق للكلمة. على الرغم من المحاولات النظرية لأولئك الذين حاولوا، ولاسيما لوي ألتوسير، في أن ينتزعوه من تراث النزعة الإنسانية ليؤكدوا علميته وبنيويته.

إننا لا نستطيع أن نفصل فكر ماركس عن سياق فكر التنوير الأوروبي، على الرغم من أنه حاول أن يحدث قطيعة معه، أو على الأقل أن يمفهم أطروحاته على طريقته. وبحسب ملاحظة هربارت ماركوز: "ما كان ماركس وأنجلز يعتبران نفسيهما ورثة عصر الأنوار والثورة الفرنسية والفلسفة المثالية الألمانية، بصورة مجازية فحسب. فالحرية والمساواة والعدالة هي الكلمات الأساسية في (رأسمال) ماركس. وإذا كانت نظريته الاقتصادية تتابع وتكمل فلسفته الإنسانية في (الإيديولوجيا الألمانية) و (مخطوطات ١٨٤٤ الاقتصادية ـ الفلسفية) فليس ذلك من زاوية التتابع الزمني وحده".

.٣

والآن، كيف يمكن أن نجعل من الماركسية شيئاً أكبر حتى مما قاله ماركس، شيئاً أوسع وأشمل وأشد حيوية؟ أظن، فقط، بعد الماركسية فعالية فكرية مستمرة، وجهداً نقدياً خلاّقاً لا يتوقف، وتأسيساً وإعادة تأسيس للمفاهيم والخطاطات النظرية تبعاً لتبدلات الواقع التاريخي، وتطور الكشوفات المنهجية التي تساعد في الوقوع على الآليات الظاهرة والخفية، التقليدية والمستجدة للنظام الرأسمالي، أو لمجمل حركة المجتمعات وقراءة مسارها ودفعها بالممارسة باتجاه عالم أكثر عدالة وحرية وسعادة.. إننا بحاجة إلى ماركسية لا تتبجح بامتلاك الأجوبة كلها، ولا تدّعي احتكار الحقيقة. لكنها أبداً تبحث في الظواهر لتفسرها، وفي وضع العالم لتغيره، وفي المشكلات لتحلها. ونصب عينها الحقيقة الصعبة، المعقدة، المراوغة، التي لها وجوه لا تحصى. ومن هنا عليها أن تعيد النظر بالوسائل التي تقترحها لتحقق وعدها، أو تسير نحو تحقيقه. بنبذ العنف أولاً، مهما حاولنا أن نعطي لهذا العنف من تسميات وصفات ملطّفة، فطرق العنف لم تفض إلاّ إلى المآسي والفشل الذريع.. أما الاستثمار الذكي لتقنيات الإعلام والثقافة ومؤسسات المجتمع المدني، والعمل السياسي حتى في إطار الأنظمة والقوانين الليبرالية، والتعويل على كتلة تاريخية جديدة تضم إلى جانب البروليتاريا التقليدية والفلاحين والمثقفين، عمال المعرفة والعاملين في حقول الإعلام، يعملون من خلال أطر تنظيمية مبتكرة، كل هذه وغيرها ستفضي شيئاً فشيئاً بأسس أنظمة الاستغلال والاستبداد والقهر والاستلاب إلى التآكل.

ولا بأس أن نختم هذا المبحث بأسئلة نرغب أن تكون مفاتيح ومداخل لمباحث تالية، متمنين أن تكون مناسبة لحوار خصب مع المهتمين بالجانب الفكري الذي نعتقد أنه لن يغتني من غير استعادة ماركس وفكره.

هل تمتلك الماركسية، الآن، تصوراً متسقاً، عميقاً وفاعلاً لعالمنا الراهن؟ وهل لديها، أو بمستطاعها إبداع الأجوبة السليمة على أسئلة وتحديات القرن الواحد والعشرين؟ وباختصار؛ هل بمقدور الماركسية طرح حلول حقيقية لمعضلاتنا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ؟ هل في فكر ماركس ما يساعدنا على الخروج من المأزق التاريخي والانسداد التاريخي الذي نجد أنفسنا فيه؟ إلى أي مدى تستطيع الماركسية التلاؤم والتكيف مع العولمة في واقعها الحالي وأفقها المنظور، وإلى أي مدى تستطيع أن تكون قوة سلب ومعارضة وممانعة فعالة لها؟ هل بإمكانها تقديم بديل تاريخي وكوني للعولمة الرأسمالية بموجهاتها الإيديولوجية وتوجهاتها الإستراتيجية؟ هل تقترح الماركسية بديلاً حقيقياً للعولمة؟ هل هي خيار متاح؟ هل هي خيار من بين خيارات أخرى أم خيار وحيد، خيار أخير؟.

يمثل البراديم الماركسي تعويضاً عن تاريخ الألم الإنساني كله، واختلافه عن الطوباويات القديمة بدءاً من جمهورية أفلاطون وانتهاءً بيوتوبيات توماس مور وسان سيمون وغيرهم هو أنه يقترح طريقة تحققه في التاريخ، على عكس تلكم اليوتوبيات التي بقيت حلماً مجرداً وصورة متخيلة محض فيما وراء الواقع والتاريخ. وهذا البراديم ما زال يعاود طرح نفسه بعدّه إمكانية تاريخية ومقترحاً، ليس وحيداً بأية حال، لإقامة الفردوس على الأرض.

سنكون مخلصين أكثر لروح الماركسية إذا ما تخلينا عن فكرة الحتمية التاريخية لصالح فكرة الاحتمال التاريخي المرتبط بإرادة الإنسان وفعله. وإذا ما وسعنا البراديم الماركسي ليستوعب افتراضات أكثر، ويتمثل معطيات عالمنا الآخذ بالتعولم، لا ليرضخ له بل ليعمل على إيجاد عولمة بديلة، أقرب إلى ما وعدنا به ماركس. وإن نبقي البراديم ذاك تحت الإنشاء أبداً.

المصادر:
١.(موجز رأس المال) فردريك أنجلس.
٢.(اسم الوردة) أمبرتو إيكو.
٣.(١٨ برومير لوي بونابرت) كارل ماركس.
٤.(كارل ماركس) فرانز مهرنغ.
٥.(تاريخ الجنسانية) ميشيل فوكو.

من قتل بي نظير بوتو؟

د. عبدالله المدني
محاضر اكاديمي - البحرين

حادثة اغتيال زعيمة المعارضة الباكستانية السيدة بي نظير بوتو، كانت فرصة للمئات من الصحفيين و كتاب الأعمدة العرب لممارسة هواية التخمين و توزيع الاتهامات البله يمينا و يسارا و الخوض في موضوع لا يملكون أدنى نواصي الدراية به، خاصة أنهم اغلبهم ما برحوا يجارون صحفهم في الاستخفاف بأحد ابسط الأمور و أسهلها و نعني بها الكتابة الصحيحة للاسم الأول للراحلة التي ظلت الصحافة العربية تكتبها بأشكال مختلفة فمرة "بنازير" ومرة "بينظير" و مرة "بناظير" دون أن تكلف هذه الصحف نفسها السؤال و الاستفسار من اصغر دارس للغة الأردية أو الفارسية. فرغم وجود المعنية بالأمر على الساحة السياسية أكثر من ثلاثة عقود من الزمن فان الصحافة العربية لم تستطع حسم طريقة كتابة الاسم الأول للراحلة، بمعنى أنها لم تستوعب أن الطريقة الصحيحة لكتابة الاسم هي كما يظهر في عنوان هذا المقال، لأن كلمة بي ببساطة أداة تنفي ما بعدها في اللغتين الفارسية و الاوردية، فلو وضعت مثلا قبل كلمة "هوش" التي تعني العقل في الفارسية لأصبح المعنى المراد هو أن فلانا من الناس لا عقل له أي انه مجنون. وقياسا على ذلك فان استخدام أداة النفي بي قبل كلمة نظير التي تحمل نفس معناها في العربية أي الشبيه و الصنو و إن كانت تكتب و تلفظ بطريقة مختلفة، القصد منه هو وصف حاملتها بالسيدة التي لا شبيه أو صنو لها وبطبيعة الحال فبعض من كتب عن حادثة الاغتيال اختار لمقالته أو عموده العنوان نفسه المبين هنا، لكن ليشير بأصابع الاتهامات دون دليل إلى هذه الجهة أو تلك كمتسبب أو مستفيد من حادثة تصفية السيدة بوتو، فإلى جانب المخابرات الباكستانية و نظام الرئيس برويز مشرف و تنظيم القاعدة، و المخابرات الأمريكية وجهوا أصابع الاتهام في كل صوب بما في ذلك المخابرات الإسرائيلية التي بحسبهم "تخلصت من هذه المرأة المسلمة الشجاعة" لأنها رفضت الاعتراف بإسرائيل. (هكذا!)

والحقيقة البسيطة التي يدركها كل من عرف السيدة بوتو أو تعامل معها، أنها قتلت نفسها بنفسها. كيف؟ بعنادها الشديد و تشبثها برأيها معطوفا على قراءتها غير الدقيقة للإحداث، و هي صفات ربما ورثتها من والدها الراحل ذو الفقار علي بوتو- بحسب ما تجسد في موقفه من نتائج آخر انتخابات رئاسية في باكستان قبيل انسلاخ الجناح الشرقي عنها في عام ١٩٧١ - هي التي تسببت في وضع حد لحياتها بتلك الصورة المأساوية التي تذكر أيضا بالرحيل المأساوي لشقيقها مرتضى بوتو الذي قضى قتيلا في شوارع كراتشي الموحشة في عام ١٩٩٦ ، برغم تحذير الكثيرين له وقتذاك من مغامرة النزول إلى تلك الشوارع المضطربة وتفرعاتها المسكونة بالعصابات و قطاع الطرق و القتلة و أعداء آل بوتو. لكن مرتضى، كما شقيقته بي نظير تجاهل كل تلك التحذيرات ووقائع الأرض، ليعول على قراءته الخاصة فقط، فوقع ضحية لعناده و حماسه لأداء ادوار البطولة في ظل أوضاع خطرة و ظروف لا تعترف بالمغامرين.

بي نظير بوتو

قابلت الراحلة بوتو مرتين فقط، كلتاهما و هي بعيدة عن السلطة أي يوم كانت تعيش في منفاها اللندني. و في كلتا المرتين كان عراب اللقاء هو المثقف و الأكاديمي الباكستاني المعروف، و احد ابرز مستشاريها ووزير إعلامها ذات مرة السيد مشاهد حسين. اللقاء الأول كان هادئا و كان غرضي منه الاستفسار منها شخصيا عن معلومات كانت متضاربة وقتذاك عن استعانة إحدى الدول الخليجية بقوات برية باكستانية لحمايتها من تداعيات مفترضة للحرب العراقية –الإيرانية. أما اللقاء الثاني فقد كان عاصفا لأنه جاء بعد محاضرة عن شخصية والدها " ذو الفقار علي بوتو" كنت قد ألقيتها و نشرت على الشبكة العنكبوتية، و ضمنتها رأيا صريحا مفاده أنها شخصية حافلة بكل أنواع التناقضات الفكرية و الاجتماعية. وقد حاول عراب اللقاء أن يلطف الأجواء بالإشارة إلى أني لا احمل أي ضغينة تجاه أسرة بوتو و إلا لما عنونت بحثي بعبارة : ذو الفقار علي بوتو : فخر باكستان و آسيا"، و من جهتي حاولت أيضا أن أشير إلى أن كل ما ذكرته يستند إلى مذكرات والدها التي ساعدت هي شخصيا على تهريبها من السجن قبيل إعدام والدها بفترة قصيرة، ثم تولت هي أيضا نشرها من نيودلهي في كتاب حمل عنوان" لو تم اغتيالي"، IF I WAS ASSASINATED، غير أن عناد السيدة بوتو و تشبثها برأيها و عدم الالتفات إلى رأي اقرب مستشاريها، حال دون استمرار اللقاء ليذهب كل منا في طريق، و اخرج آنذا بانطباع عام هو أن مقتل أي سياسي هو العناد و الغرور الذي لا يمنح فسحة ولو صغيرة للرأي الآخر، خاصة إذا تلازم ذلك مع أمر آخر لا يقل خطورة هو الاعتداد المبالغ بالذات. و هذه صفة أخرى تميز بها آل بوتو، بمعنى أن مشاهد الجماهير الصاخبة الرافعة للقبضات و الأعلام في الهواء، كانت تبعث فيهم الخيلاء و تؤجج فيهم فكرة انه ما دامت وراءهم كل هذه الحشود فهم في أمان و يستطيعون تحقيق النصر على خصومهم بسهولة، دونما التفات إلى حقائق أخرى و منها أن الجماهير تنفض بنفس سرعة تجمهرها، و غير معنية دائما بممارسة ادوار البطولة.

إن رحيل السيدة بوتو، هو لا شك خسارة لباكستان و للقوى الليبرالية و العلمانية في هذا البلد المنحدر بسرعة صاروخية نحو الوقوع في أحضان قوى التطرف و التشدد و الغلو الهمجية، لكنه ليس بالصورة التي وصفها بعض الكتاب العرب ممن وجدوا في رحيلها نهاية المطاف، كما أن عودتها إلى بلادها بالطريقة التي تمت لم تكن عملا بطوليا مثلما قال البعض الآخر من المحللين العرب، بل كانت عملا انتحاريا لا يقدم عليه إلا أصحاب القراءة المبتسرة للأوضاع. ففي سنوات قيادتها لهذا البلد المأزوم كان بامكانها أن تفعل الكثير لكنها انجرفت إلى ما انجرف إليه قبلها كل أسلافها من الساسة المدنيين، فخرجت من السلطة سريعا من دون أن تحقق إنجازا سوى دخولها التاريخ كأول إمرة مسلمة تقود بلدا مسلما، علما بأن هذا الأمر هو الآخر لم يمر من دون تداعيات ضارة على علاقات باكستان بأقرب حليفاتها العربيات و هي المملكة العربية السعودية. إذ فجر الحدث ثاني سؤ تفاهم في تاريخ العلاقات السعودية –الباكستانية، كنتيجة لإصدار مفتي السعودية وقتذاك الشيخ عبدالعزيز بن باز فتوى حرم بموجبها صعود النساء إلى قمة هرم السلطة في البلاد الإسلامية، الأمر الذي عقد في حينه مسألة زيارتها إلى مكة المكرمة لأداء العمرة مثلما اعتاد زعماء باكستان فعله بعيد توليهم السلطة. أما الأزمة الأولى في تاريخ علاقات البلدين فقد كانت في الخمسينيات يوم أن شنت الصحافة الباكستانية هجوما لاذعا على الرياض و اتهمتها بالابتعاد عن أهداب الإسلام، بسبب استقبالها رئيس وزراء الهند جواهر لال نهرو في ذروة أزمة السويس عام ١٩٥٦ و ما كتبته الصحافة السعودية عن الضيف "الهندوسي" من مديح و إطراء و ألقاب مثل رسول السلام.